الأدب في سير أعلامه :

١٠ ـ تولستوى

[قمة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

خيوط من النور

لئن اشتدت حلكة الليل فى عهد نيقولا ، وأحاطت بالناس المخاوف مما كان يتهددهم من المهالك ، فان خيوطاً من النور برغم ذلك كانت تتراءى على الأفق فتكون لأنفس الأحرار أنساً وشفاء وعزاء ...

حالت القوة بين الروس وبين أى عمل يتصل بالسياسة فقام الفكر والأدب مقام العمل ؛ ولكن أى فكر هذا وأى أدب وكيف يتسنى له أن يخرج من الرؤوس ، وكيف تتجاوب به نفوس الأحرار والرقيب من ورائهم محيط وسلطة لا يحدها قانون ولا تقوِّمها نصَفة ؟ ليس غير الفن ينفس به الأحرار عن أنفسهم وقد اختاروا من صور الفن : القصة والشعر والموسيقى ... وراحوا يهمسون بهذا الفن همساً سوف يكون له فى روسيا دوى عظيم .

كانت القصة الروسية على حد تعبير أحد الكتاب « صرخات من فوق خشبة الصلب » ، ولكنها كانت صرخات القوى الذى أنطقه الألم الهائل على رغمه ، لا صرخات الخائر الذى يستعطف ويبكى ...

ولما كانت القصة فى مقدمة الوسائل التى عبر بها الروس عما فى نفوسهم ، فقد برعوا فيها براعة جعلت الكثيرين من فطاحل النقد فى أوربا يسلمون لروسيا بالسبق فى هذا الميدان ، فعندهم أن فن القصة بلغ أوج كماله فى القرن التاسع عشر فى روسيا فقد سبق الروس فى هذا القرن أساتذتهم من الفرنسيين والانجليز والألمان حتى غدوا هم الأساتذة وأحدثوا فى هذا القرن أثراً بعيداً فى فن القصة فى هذه الأمم الثلاث وفى غيرها ممن نقلوا القصة الروسية إلى آدابهم ...

وليس بعجيب أن ينبغ الروس فى هذا النوع من الأدب ، فأمام غيرهم مجال القول متسع فى غير هذا الفن ، ولكن الروس اضطروا أن يظلوا على القصة عاكفين زمناً طويلا فتهيأت لهم أسباب التفوق ، وتعددت فى القصة مذاهبهم وأساليب تعبيرهم ، واتضحت هذه المذاهب واستقرت ، وطُوِّعت هذه الأساليب وأسلس قيادها .

كان على كتاب القصة أن يخلقوا وسيلة بها يتكلمون ولكن على ألا يفطن إلى ما يريدون المتصنتون من الحكام والرقباء ، وكانت القصة فى ذاتها كمهل فنى خير معين لهم على ذلك ولكنهم أضافوا إليها ما أضافوا من صور الوصف فأبدعوا تصوير ما كانوا يريدون تصويره من مشاهد الحياة وآلامها ، وألوان العواطف الإنسانية وخلجاتها ؛ ولقد أدى بهم هذا إلى أن يسلكوا وإن لم يقصدوا مذهب الفن للفن ، فلم يدعوا إلى شىء إيجابى أو يقترحوا علاجاً لداء ؛ وإنما اكتفوا أو اضطروا فى الحق أن يكتفوا بتصوير الحياة الروسية كما هى بما فيها من خير وشر ، ومن هنا كذلك كان المذهب الواقعى هو الغالب فى القصة الروسية .

وكان هذا الوصف أعلى فى الآذان صوتاً وأعمق فى النفوس أثراً من كافة صور التعبير التى أتيحت لغير الروس ، من فلسفة ومقالة ومحاضرة وبحث ، وتلك هى ميزة الفن وبخاصة فن القصة وقد بلغت أقصى ما يبلغه فن كأداة للتعبير على أيدى أساطين القصة الروسية .

وثمة صفة أخرى للقصة الروسية ، وتلك هى انطواؤها على كثير من النذر ، ويشاركها فى ذلك الشعر إلى حد كبير ، حتى ليمكن القول إن الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر كان أكثر من أدب أية أمة تنبؤاً بالمستقبل المخيف ؛ بل لعل هذا التنبؤ هو خاصته التى مازته من غيره فهو نذير للناس بالهول والبلاء والشر المستطير ، وقل أن كان بشيراً بشىء إلا بما يفهم مما يتضمنه هذا الشر المنتظر من معنى الثورة التى تذهب بالمساوئ القائمة وتفتتح فى تاريخ البلاد عهداً جديداً ..

ولقد كان الأدب الروسى فى الواقع لهذه العوامل المحيطة به أدباً ثائراً ؛ لا بما كان ينذر به من هول فحسب ولكن بما كان يصف من سوء الحال ، فان ذلك الوصف على ما يبدو من هدوئه كان متنفساً للنفوس مما كانت تنطوى عليه من ثورة ، أو كان شكاة وأنيناً أو « صرخات من فوق خشبة الصلب »

والفرق واضح بين هـذا الأدب الروسي وبين أدب فرنسا قبيل ثورتها الكبرى على أيدى فلتير وروسو وديدرو وأضرابهم فقد تفلسف أولئك الفرنسيون وسخروا وبينوا سبل الخلاص وواجهوا المسائل السياسية والاجتماعيـة والاقتصادية مواجهة مباشرة فكانوا فى الغالب فلاسفة مفكرين ، ولكن الروس صوروا فحسب ، فلم يبينوا لنا المعايب الاجتماعية وأسبابها وشقاء العيش وعوامله ، وإنمـا خلقوا لنا أناساً أشقياء يتألمون وتفدحهم كوارث الحياة ولا يدرون ماذا يفعلون .

ولقد أحدث هذا الأدب أثره العميق في النفوس على الرغم من الرقابة والرقباء ، حتى انتهى الأمر إلى ثورة جارفة كانت فى الواقع من صنع الفن وحده ؛ وليس فى هذا الذى نذكر شيء من الغلو ، فبالفن لا بالأفكار المجردة ، ولا بالدراسة المباشرة لمشكلات روسيا هدم أدباء الروس صرح العهد القديم ، وعلى ألسنة أشخاصهم التى خلقوها وفى ميول هذه الأشخاص ونزعاتها وحركاتها عبر الكتاب عما يريده كل روسى وأفصحوا دون أن يقولوا قولا صريحاً عما كان يشغل الأذهان من آراء فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد ما كان ليسمح بها الرقيب ...

وفى الأدب الروسى جانب روحى أكسبه صفة إنسانية عامة بها وجد سبيله إلى قلوب الناس فى كل أمة ؛ وهـذا الجانب الروحى فيه هو محاولة الوصول إلى خلاص للانسان عامة من شرور الحياة وشقائها ، وتوقعه حياة أخرى أسمى من هذه الحياة ، ومرد ذلك فى الواقع إلى هول ما عانى الروس من ظلم وما ذاقوا من ألم وشقاء . ومن عجب الأمور أن كثيراً من الأدباء الروس على مابلوا من شرور الحياة حولهم وآثامها كانوا يؤمنون فى كتاباتهم بالخير وأنه هو الأصل فى الإنسان ، وأن الشر يأتيه من الحياة وملابساتها ، فكان هؤلاء الأدباء متفائلين مع ما كانت تريهم الحياة من دواعى التشاؤم .

وكفر أدباء روسيا بمدنية الغرب وثقافة الغرب ، فلم يروا أنهما حق كلهما ، وإنما أحسوا فيهما بكثير من صور الباطل ؛ وارتابوا فى كثير من المبادئ التى أخذ بها العالم الغربى واطمأن إلى استقرارها وصلاحيتها لتقدم العمران والسمو بمستوى الحياة ؛ وساورهم كثير من القلق فيما عسى أن تفضى إليه هذه المبادئ من كوارث قد تطيح بهـا وبمدنية الغرب جميعاً ، وقد أضاف هذا الكفران بمدنية الغرب وثقافته إلى الأدب الروسى والقصة الروسية نغمة ارتاحت إليها النفوس القلقة ، وزادت هذه النغمة ثورة هذا الأدب بروزاً ، وجعلت له خطراً كبيراً فى تاريخ الفكر البشرى ...

وأدى هذا الكفران بمدنية الغرب ومبادئ المجتمع الغربى إلى اتساع أفق الأدب الروسى ، فبات يتعمق النظر فى مسائل الحياة والموت وما عسى أن يكون وراء هذا الكون العجيب من أسرار ود الأدباء لو استطاعوا أن يهتدوا إلى شيء منها ، وقد صبغ هذا الاتجاه الأدب الروسى بصبغة دينية صوفية لا مثيل لها فى أدب الغرب ...

***

كان الشعر أسبق من النثر فى هـذا القرن ولذلك حق أن نتكلم أولا عما كان للشعر من أثر فيما نحن بصدده ، وقد تجلى هذا الأثر فى شعر شاعرين كانت لها أو على الأصح كانت لأولهما زعامة الشعر الروسى الحديث وهما بوشكين وليرمونتوف . وقد ولد أولهما سنة ١٧٩٩ ومات فى الشهر الأول من سنة ١٨٣٧ . وولد ثانيهما سنة ١٨١٤ ومات سنة ١٨٤١ .

تمثلت الروح الجديدة فى حياة بوشكين وفى شعره ، ولقد كان لهذا الشاعر الفذ الذى مات فى الثمانية والثلاثين من عمره ، أعمق الأثر فى الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر ...

يعد بوشكين بحق أحد عباقرة الشعر فى جميع عصوره وعلى اختلاف بيئاته ، فقد خلق موهوباً كما يخلق أفذاذ هذا الفن وخوله فله قوة الشعر وعمق الفكرة وصدق الإحساس وحدته وسمو الروح وحرارة الإيمان وجمال النفس ، وله إلى جانب ذلك الأداة الطيعة من التعبير الجميل القوى والموسيقى الرائعة الحلوة .

على أن مايعنينا هنا هو أثر فنه لا قيمة ذلك الفن ؛ ولقد كان أكبر تأثيره فى حياة قومه بما تغنى به من أغانى الحرية ، تلك الأغانى التى هزت النفوس هزاً .

تأثر بوشكين بشاعر عظيم متمرد تأثر هو واللورد بيرون الذى قضى نحبه سنة ١٨٢٤ فى حصار مسولنجى مصاباً بالطاعون ، وقد كان يدافع مع المدافعين عن حرية اليونان ، وأعجبت بوشكين

حية بيرون كما أعجبته طريقته فى الشعر ، وكان من أبرز خصائص بوشكين أنه يتمثل آثار غيره ويتأثر بها ولكنه لا يفقد أصالته ولذلك فقد احتفظ بروحه الروسية وإن اصطنع أسلوب بيرون .

تغنى بوشكين بعظمة روسيا وقوتها وكان يعد بطرس الأكبر بطلها الفرد ، وغنى بمثل البكاء حياة فلاحيها وشقاءهم ، وكان شعره مليئاً بالنذر ، فكان منذراً للطاغين مبشراً بحرية سوف تنعم بها روسيا بعد طول الأسر والعذاب تجد ذلك فى قوله « إنا منتظرون ، وقلوبنا الملهفة تخفق بالأمل فى الحرية المقدسة كما ينتظر العاشق الشاب ساعة لقائه بفاتنته »

وتأثر بوشكين كذلك بمبادئ الثورة الفرنسية ، وكان صديقاً للديسمبريين ، ولكنه كان قد نفى إلى ضيعة أمه قبيل حركتهم فلم يشارك فيها ونجا بذلك من الموت اينظم لروسيا خير ما أخرجت من شعر وليوقظ مشاعرها ويطبع أدبها بطابعه ؛ وليكون شعره حداءها الممتلئ بالأمل والسحر .

وكان حول بوشكين عدد من الشعراء ، كان ليرمنتوف الذى بدأ ينظم الشعر من سن الرابعة عشرة أبرزهم وأقواهم موهبة ، وقد تأثر هذا الشاب الشاعر ببوشكين أولا ثم بشلر وأخيراً باللورد بيرون ذلك الذى أحبه ليرمونتوف حباً كاد ينسيه كل شاعر غيره حتى بوشكين نفسه .

وكان ليرمونتوف فى شعره منذراً أكثر مما أنذر بوشكين ، وقد أذاع قصيدة غفلا من اسمه سنة ١٨٣٠ تنبأ فيها بالثورة ، حتى ليعجب من يقرأها بعد الثورة البلشفية من صحة نبوءته ؛ فكأنما كانت تتكشف له حجب الغيب ؛ وتغنى ليرمونتوف بالحرية كما تغنى بوشكين ، وكان ينظم الشعر فى يسر فيجئ قوياً متدفقاً كالسيل ، ولكن الموت لم يمهله لتمد موهبته غاية مدها فمات وهو فى السابعة والعشرين — على أنه قبل وفاته بسنة أخرج وصية نثرية سنة ١٨٤٠ تعد أول قصة تحليلية فى الأدب الروسى الحديث وهى القصة المسماة « بطل من أبطال عصرنا » ، ولذلك يعد هذا الشاعر الفذ طلعة فى فن القصة .

***

ونعود بالحديث إلى القصة فنجد أن الكاتب الذى يعد مقامه فى القصة كمقام بوشكين فى الشعر هو جوجول المولود سنة ١٨٠٩ والمتوفى سنة ١٨٥٢ ؛ وليس معنى ذلك أنه لم يوجد قبل جوجول قصصى ، وإنما نقصد أن جوجول كان رائد القصة الروسية فى القرن التاسع عشر وكان زعيماً من أكبر زعمائها غير مدافع ...

قام فن هذا القصصى الموهوب على أساس السخرية من المعايب الاجتماعية فى عصره ، ولم تكن سخريته سخرية نفس هادئة تعطف على ما تخلق من الشخصيات وترفق بهم وتضحك مع الضاحكين كسخرية شارلز دكنز مثلاً ، وإنما كانت سخرية عنيفة هدامة تبرز المعايب عن سخيمة ونقمة كأنها سخرية شيطان يلهو بزلة فريسة من فرائس غوايته ...

كان يؤلم جوجول أن يرى روسيا وقد ذاع فيها الشر والفساد والباطل ، وماتت فيها روح العدالة والخير ، وكان يقول دائماً إنها ممتلئة بالأفعنة الكاذبة حتى ماتقع العين على آدمى واحد فيها ، والحق أنه قلما اطمأن إلى وجود شىء من الخير فى الحياة الروسية فقد استشرى الشر فى رأيه حتى لم يدع للخير مجالا ...

وقد أنتج جوجول عدداً غير قليل من القصص والصور الاجتماعية ، ويهمنا فيما نحن بصدده ثلاثة منها هى «المفتش العام» و « الأنفس الميتة » و « العباءة » أما القصة الأولى فهى ملهاة تهكمية تدور حول نبأ أذيع بأن مفتش الحكومة العام قادم للتفتيش فى مدينة من مدن الأقاليم ، ولما كان المفتش غير معروف فقد أخذ الموظفون مسافراً من المسافرين على أنه المفتش المرهوب الجانب ، فأكرموا وفادته ومشوا بين يديه بالزلفى وأعطوه المال والهدايا ، ولما رأى ذلك المسافر أنه قد أخذ منهم كل ما استطاع أخذه من المال فر هارباً ؛ ويسدل الستار عقب إعلان أن المفتش الحقيقى قد وصل فعلا ! ؛ ولقد أحدثت هذه الملهاة ضجيجاً كبيراً وأثارت من حنق الحكومة على مؤلفها ما اضطره إلى مغادرة روسيا إلى إيطاليا حيث أتم قصته الكبرى « الأنفس الميتة » .

تعد هذه القصة الثانية من أعظم الآثار فى أدب أوروبا جميعاً ولم تكن لها عقدة معينة أو حكاية غرام ، وقد أتمها جوجول فى عدة سنوات ، وفيها سخر أشد السخرية من كل ما عده معيباً فى الحياة الروسية ، وتهزأ بمن شاء من الأشخاص الذين صور أمثلة لهم فى قصته الكبرى ، وقد نفذت عينه نفاذاً عجيباً إلى كل معيب شائن فى جوانب تلك الحياة وإلى كل وضيع مرذول من صور